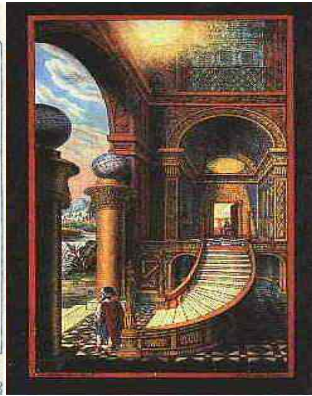




[www.alkashif.org](http://www.alkashif.org)

مرکز الکاشف للدراسات والبحوث الإسلامية



( - )

---

---

- : .

## الفصل الثالث الحركات اليهودية الهدامة في العصر الحديث

لم يتوقف اليهود - حسب الرؤية التأميرية - عن الانضمام للحركات الهدامة في العصر الحديث . وأهم هذه الحركات هي الماسونية ، ويُضيف البعض البهائية وكل العبادات الجديدة . وسيتناول هذا الفصل هذه الحركات الهدامة !

### العبادات الجديدة

«العبادات الجديدة» حركات شبه دينية ، لها شعائر مركبة وتنظيم مغلق ، يرتدي أعضاؤها أحياناً أزياء خاصة مقصورة عليهم . وتزود هذه الحركة أعضائها بالأمن من خلال عقيدة ثابتة بسيطة تفسر الكون وكافة الظواهر ، حيث يتطلب الانتماء إلى هذه العقيدة الولاء الكامل . ومن أكثر الظواهر التي تتهدد اليهودية المعاصرة ، إقبال أعضاء الجماعات اليهودية على هذه العبادات الجديدة ، خصوصاً بعد أن تخلى أتباع هذه العبادات عن شعائرها الغربية الشاذة وأصبح أسلوب حياتهم لا يختلف عن أسلوب حياة الإنسان العادي في المجتمعات التي يعيشون في كنفها . ومع أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية لا يزيد بأية حال على ٣٪ من سكان الولايات المتحدة ، فإن من الملاحظ أن حوالي ٢٠ - ٥٠٪ من أعضاء مثل هذه الحركات من اليهود ، كما أن كثيراً من قياداتها منهم . ولا يختلف الوضع في أوروبا الغربية عنه في الولايات المتحدة . ومن أهم هذه الجماعات في الولايات المتحدة الجماعة البوذية من طراز الزن (٥٠٪ من مجموع أتباعها في سان فرانسيسكو من اليهود) وجماعة هاري كريشنا الهندوكية (١٥٪ من جملة أتباع الجماعة في الولايات المتحدة من اليهود) ، وهناك أيضاً كنيسة التوحيد (يونيفيكشان تشرش Unification Church) وجماعات الإمكانية الإنسانية مثل إست EST وينبوع الحياة . ويمكن أن نعتبر الماسونية والبهائية من هذه العبادات الجديدة . وقد عادت جماعات عبادة الشيطان للظهور مرة أخرى وانتظم في صفوفها كثير من أعضاء الجماعة اليهودية . كما نشطت جماعات تبشيرية

مسيحية ذات ديباجات يهودية (جماعات «المسيحيون العبرانيون») تمارس نشاطها بين أعضاء الجماعة . ومن أهم هذه الجماعات ، جماعة «يهود من أجل المسيح» التي ترى أن بوسع اليهود أن يصبحوا مسيحيين ويهوداً في ذات الوقت ، بل إن مسيحياتهم إن هي إلا مسوِّغٌ ليهوديتهم . وهؤلاء المبشرون يجيدون استخدام الرموز اليهودية ، مثل : الخبز غير المخمر ، واللغة العبرية ، ونجمة داود ، وشمعدان المينوراه . وهم يشيرون إلى المسيح ومريم بأسمائهما العبرية («يهوشاو» ، و«مريام» ) ، ويسمون المسيح «الماشيح» . كما يحاولون أن يضعوا مضموناً مسيحياً للرموز اليهودية ، ففي عيد الفصح ، على سبيل المثال ، نجد أرغفة خبز الفطير الثلاثة (متسوت) هي الثالوث المسيحي ، أما نصف الرغيف (أفيكومان) وعظمة الحمل فيرمزان للمسيح المصلوب ، والنيذ هو دمه . وقد أضافوا إلى كل ذلك تأييد دولة إسرائيل تأييداً أعمى ، ولكنهم يضعون هذا التأييد في سياق مسيحي . ويبدو أن ثمة إقبالاً شديداً من جانب الشباب اليهودي على هذه الجماعات ، بل ويقال أن عدد الذين تنصروا من خلال هذه الجمعية يصل إلى ثلاثين ألف يهودي .

وقد وصل نشاط هذه العبادات إلى إسرائيل ذاتها ، فعبادة «تي إم TM» (اختصار لعبارة «ترانسندنال مديتيشان Transcendental Meditation» أي التأمل المتسامي) قد جذبت آلاف الإسرائيليين ، ولها مستوطنة تُسمى «ميجداليم» . كما أن جماعة هاري كرشنا تنوي تشييد كيبوتس .

ويبدو أن إقبال اليهود والإسرائيليين على العبادات الجديدة هو تعبير عن ضعف العقيدة اليهودية وعن تزايد الإحساس بالاغتراب نتيجةً لتزايد معدلات الترشيد والعلمنة وتآكل الأسرة كمؤسسة وسيطة . والعبادات الجديدة تحل محل العقيدة والأسرة في ذات الوقت ، وتقوم بعملية الوساطة العقائدية والفعالية بين الفرد والمجتمع . كما يقبل كثير من الشباب اليهودي على العبادات الجديدة ، لتأكيد لها على الزهد ، تعبيراً عن احتجاجهم على النجاح المادي الذي حققه أهاليهم باندماجهم في الحضارة البورجوازية الغربية ، فهو في تصورهم نجاح خالٍ من المعنى والمضمون الخلفي ، ويؤدي إلى الاستغراق في الحياة الحسية والاستهلاك اللامتناهي .

ولعل التركيب الجيولوجي التراكمي لليهودية من أهم الأسباب لإقبال الشباب اليهودي على العبادات الجديدة ، فاليهودية تحوي طبقات مختلفة متناقضة متجاورة متعايشة لا تفاعل بينها في حين تتسم العبادات الجديدة بأنها قاطعة محددة والانتماء إليها

يعني اكتساب هوية واضحة . كما أن اليهودي الذي ينضم إلى عبادة جديدة يمكنه أن يجد سوابق لها في تراثه اليهودي (عبادة الشيطان ليست أمراً بعيداً عن التضحية لعزازيل) . ومعظم هذه العبادات تعبر عن الحلولية إما من خلال وحدة الوجود الروحية أو من خلال أو الحلولية بدون إله ، أي وحدة الوجود المادية وهي الحلولية التي يتوحد فيها الخالق تماماً بالوجود المادي ، فيصبح كامناً في المادة أو في ذات الإنسان . واليهودية باعتبارها تركيباً جيولوجياً تحوي طبقة حلولية قوية تولد لدى أعضاء الجماعات اليهودية قابلية للانخراط في صفوف هذه العبادات الجديدة . ومن أهم الأمور الأخرى التي ساعدت على انضمام اليهود إلى هذه الجماعات ، خاصة جماعات المسيحيين العبرانيين ، أنها لا تطلب إلى اليهودي أن يتخلى عن انتائه أو هويته الدينية الإثنية ، الأمر الذي يجعل الأمر سهلاً على الكثير من اليهود . ومن الحقائق الإحصائية التي قد تكون لها علاقة بموضوع العبادات الجديدة أن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية في الجمعيات السرية في العالم هو ٣٠٪ .

ونحن نضع الماسونية والبهاية والموحدانية واليهودية المتمركزة حول الأثنى (بل واليهودية التجديدية وحركة الحضارة الأخلاقية) ضمن هذه العبادات الجديدة (على الرغم من أن المراجع التي اطّلنا عليها لا تُصنّفها مثل هذا التصنيف) .

#### الماسونية : تاريخ وعقائد

كلمة «ماسونية» من الكلمة الإنجليزية «ميسون Mason» التي تكتب في العربية خطأً «ماسون» . لكن الخطأ شاع ، ولا حيلة لنا من اعتماده ومسايرته . وهي تعني «البناء» ، ثم تضاف كلمة «فري free» بمعنى «حر» وتعني «البناء الحر» . وقد اختلف المفسرون في تعريف أصل كلمة «حر» ، فيقال أنها نسبة إلى «فري ستون free stone» ، أي «الحجر السلس» . وقد ورد في مخطوطات العصور الوسطى اللاتينية عبارة «إسكالبتور لايبديوم ليبيروروم sculptor lapidum liberorum» ، أي «ناحت الأحجار الحرة» ، ولكن بعض التفسيرات تذهب إلى أن كلمة «حر» تعني «لتمييز الـ «فري ميسون» ، أي «البناء الماهر» ، في مقابل الـ «راف أوررو ميسون rough or raw mason» ، أي «البناء الخام غير المدرب» وثمة رأي ثالث يذهب إلى أن الـ «فري ميسون» ، هو عضو في نقابة البنائين ، ولذا فهو «حر» أي أن من حقه ممارسة مهنته في البلدية التي يتبعها بعد أن يكون قد تلقى التدريب اللازم . ويذهب رأي رابع إلى أن كلمة «فري» إنما تشير إلى أن

البنائين لم يكونوا ملزمين بالاستقرار في إقطاعية أو بلدية بعينها والارتباط بها ، وإنما كانوا أحراراً في الانتقال من مكان إلى آخر داخل المجتمع الإقطاعي . وإن صدق هذا التفسير ، فهذا يعني أن البنائين كانوا مثل أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب والذين كانوا يعدون عنصراً حراً يمكنه الانتقال من بلد إلى آخر . وقد كان هذا حقاً مقصوراً على الفرسان ورجال الدين .

وتُعرّف الماسونية بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التي تمارس هذه التعاليم ، والتي تضم البنائين الأحرار والبنائين المقبولين أو المنتسبين ، أي الأعضاء الذين لا يمارسون حرفة البناء .

وبعد أن أوردنا هذا التعريف الشائع ، فإننا سنكتشف في التور أنه تعريف غير كافٍ البتة ، إذ أن الماسونية ، مثل اليهودية ، تركيب تراكمي جيولوجي مر بمراحل عدة فأصبحت عناصره تشبه الطبقات الجيولوجية التي تتراكم الواحدة فوق الأخرى دون أي تفاعل أو تمازج . ورغم اختلاف الطبقات ، فإنها تظل متعايشة ومتجاورة ومتزامنة داخل نفس الإطار . ومن ثم ، فبرغم أنه توجد كلمة واحدة أو دال واحد هو «الماسونية» يفترض فيه أنه يشير إلى ظاهرة واحدة ، فإن الماسونية في واقع الأمر هي عدة أنساق فكرية وتنظيمية مختلفة تماماً لا تنظمها وحدة . ومشكلة التعريف ، أي تعريف ، أنه يستخدم صيغة المفرد ، ومن ثم يفترض وحدة وتجانساً حيث لا وحدة ولا تجانس ، ويفترض وجود مدلول واحد للدال .

وقد قيل في محاولة التوصل إلى حد أدنى مشترك بين كل الماسونيات أنه توجد ثلاثة عناصر تميزها . أول هذه العناصر هو وجود مراتب ثلاث أساسية يقال لها درجات ، وهي :

( أ ) التلميذ أو الصبي (المتحق أو المتدرب) .

( ب ) زميل المهنة أو الصنعة (الرفيق) .

( جـ ) البناء الأعظم أو الأستاذ (بمعنى أستاذ في الصنعة) .

ولكن أضيف إلى هذه الدرجات الثلاث الأساسية درجة رابعة أخرى أساسية هي «القوس المقدس الأعظم» ، ثم هناك ما يقرب من ثلاث وثلاثين درجة أخرى في بعض المحافل (كما هو الحال في الطقس الإسكتلندي القديم) ، ويصل أحياناً عدد الدرجات إلى بضعة آلاف .

ومادما نتحدث عن أشكال التنظيم يمكن أن نضيف هنا أن رموز الماسونية : المثلث ، والفرجار ، والمسطرة ، والمقص ، والرافعة ، والنجمة الخماسية ، والأرقام ٣ و٥ و٧ (وهي رموز وطقوس تساعد على اكتشاف النور) . والوحدة الأساسية في التنظيمات الماسونية هي المحفل أو الورشة . ويحق لكل سبعة ماسونيين أن يشكلوا محفلاً ، والمحفل يمكن أن يضم خمسين عضواً . وتعد المحافل اجتماعاً دورياً كل خمسة عشر يوماً ، يحضره المتدربون والعرفاء والمعلمون . أما ذوو الرتب الأعلى فيجتمعون على حدة ، في ورشات «التجويد» . ويفترض في المشاركين في الاجتماع أن يقبلوا بلباس معين : فهم يضعون في أيديهم قفازات بيضاء ، ويزينون صدورهم بشرط عريض ، ويربطون على صدورهم مآزر صغيرة ، وقد يرتدون ثوباً أسود طويلاً ، أو بزة قائمة اللون ، أو «سموكينج» ، بحسب تقاليد محفلهم ، وهي تقاليد غاية التعقيد والتنوع .

وتشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى . ففي فرنسا ، على سبيل المثال ، خمسة محافل رئيسية كبرى ، وهي : محفل الشرق الكبير ، ومحفل فرنسا الكبير ، والمحفل الوطني الفرنسي الكبير ، والاتحاد الفرنسي للحقوق الإنسانية ، ومحفل فرنسا الكبير للنساء . وتعد المحافل الكبرى جمعيات عمومية يتخللها تقييم العمل الذي تم إنجازه ورسم خطط العمل للمستقبل . وبعد عرض هذه الأشكال التنظيمية والطقوس والرموز ، يمكننا القول أن تنوعها يجعلها غير صالحة كأساس تصنيفي للماسونية .

أما العنصر الثاني الذي يقال أنه يميز الماسونية عن غيرها من الحركات ، فهو الإيمان بالحرية والمساواة والإنسانية . ولكن كثيراً من المحافل اتخذت مواقف عنصرية ، فالمحافل الألمانية والإسكندنافية رفضت السماح لأعضاء الجماعات اليهودية بالانضمام إليها ، والمحافل الأمريكية رفضت انضمام الزنوج . كما لم تنجح المحافل الماسونية في تجاوز الحدود القومية الضيقة . ففي أثناء الحرب العالمية الأولى ، على سبيل المثال ، استبعدت المحافل البريطانية الأعضاء من أصل ألماني أو نمساوي أو مجري أو تركي .

أما العنصر الثالث ، وهو العنصر الربوبي ، أي الإيمان بالخالق بدون حاجة إلى وحي ، فإن محفل الشرق الأعظم في فرنسا رفض هذا الحد الأدنى تماماً عام ١٨٧٧ ، وترك لكل عضو أن يحدد بنفسه موقفه من هذه القضية ، وتم التأكيد على « التقوى الطبيعية» بدلاً من « الإيمان الحق » ، أي أن الماسونية الفرنسية تبنت صيغة علمانية كاملة مؤسسة على الفكر الهيوماني أو الإنساني العلماني .

وحتى نصل إلى تعريف دقيق مركب ، فإننا لا بد وأن نأخذ في الاعتبار هذه الخاصية التراكمية الجيولوجية ، فندرس الطبقات الجيولوجية في تراكمها الواحدة فوق الأخرى ، والتي أدت في نهاية الأمر إلى ظهور الماسونيات المختلفة وصفاتها المتنوعة . ويجب أن نؤكد ابتداءً أننا يجب أن نلزم الحذر في تحديد المستوى التعميمي والتخصيصي . فعلى الرغم من أن الماسونية حركة بدأت في أوروبا (في العالم الغربي) إلا أنها انتشرت في العالم بأسره . ورغم انتشارها هذا إلا أنها لم تصبح حركة عالمية ، إذ لا يوجد نمط واحد للتطور ، فالماسونية في الغرب مختلفة عنها في العالم الثالث . وهي في إيطاليا مختلفة عنها في أمريكا اللاتينية . وكما سنبين أن الحركات الماسونية المختلفة خدمت دولها ولذا قامت الحركات الماسونية البريطانية بخدمة الاستعمار البريطاني وقامت الحركة الماسونية الفرنسية بخدمة الاستعمار الفرنسي (ولذا نشب صراع بين الحركتين) .

تعود جذور الماسونية إلى جماعات أو نقابات الحرفيين في العصور الوسطى الإقطاعية في الغرب ، وهي جماعات كانت منظمة تنظيمياً صارماً شبه ديني ، فكان لكل نقابة طقوسها الخاصة ورموزها الخفية وقسمها السري وأسرار المهنة التي تحاول كل جماعة الحفاظ عليها . وهذه كلها أدوات لها وظيفة اجتماعية في غاية الأهمية إذ أنه ، مع غياب المؤسسات التعليمية ، كان يتم توريت المعلومات ، والخبرات المختلفة الحيوية اللازمة لاستمرار المجتمع ، من خلال نقابات الحرفيين . وبدون هذه العملية ، لم يكن ممكناً للمجتمع أن يحقق أي استمرار . وكانت جماعات البنائين من أقوى الجماعات الحرفية ، ذلك أن العصور الوسطى كانت هي العصر الذهبي لبناء الكاتدرائيات والأديرة والمقابر . وكان البنؤون يعيشون على أجرهم وحده ، على عكس الحرفيين الآخرين ، مثل النساجين والحدادين الذين كانوا يتقاضون من زبائنهم مقابلاً عينياً من خلال نظام المقايضة ، أي أن البنائين (مثل أعضاء الجماعات اليهودية) كانوا جزءاً من اقتصاد نقدي في مجتمع زراعي . كما أن البنائين كانوا أحراراً تماماً في حركتهم . فقد كان الحداد ، مثلاً ، يقوم بعمله في مكان ثابت ويقوم على خدمة جماعة بعينها ، أما البناء فكان عليه الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن عمل . ولذا ، يمكن القول إن البنائين كانوا من أكثر القطاعات حركية في المجتمع الوسيط في الغرب . وكان على البنائين أن يجدوا إطاراً تنظيمياً يتلاءم مع حركيتهم ، فالنقابات الحرفية بتنظيمها المألوف كانت ملائمة للحرفيين الثابتين . أما بالنسبة للبنائين ، فكان لا بد من ابتداء إطار حركي خاص بهم . ومن هنا كانت فكرة البناء الذي يقال له بالإنجليزية : «لودج lodge» أي «المحفل» . والمحفل هو عبارة عن كوخ يبني من الطين

أو مادة بناء أخرى يسهل إزالتها بعد الانتهاء من عملية البناء . وكان المحفل هو المكان الذي يلتقي فيه البنّاءون حيث يتبادلون المعلومات ، ويعبرون عن شكواهم وضيقتهم من أحوال العمل ، ويتبادلون الأخبار بل والمشروبات . كما كان بوسعهم النوم في المحفل وقت الظهيرة . وكان العضو الجديد من جماعة البنّائين يذهب إلى المحفل لمقابلة أبناء حرفته ، ومن هنا ظهرت فكرة السرية والرمزية ، إذ كان لابد وأن يتوصل هؤلاء البنّاءون إلى لغة أو شفرة خاصة بهم لا يفهمها سواهم ولا يمكن لصاحب العمل أو غير المشتغلين بحرفة البناء فهمها . وقد أخذت الشفرة شكل عبارات خاصة وطرق معيّنة في المصافحة وإشارات بالأيدي الهدف منها أن يتمكن البنّاء من التفريق بين أبناء حرفته الحقيقيين الذين تلقوا التدريب اللازم ويتمون إلى نقابة الحرفيين وبين الدخلاء على الحرفة . وقد التزم البنّاءون بمجموعة من الواجبات ضمها ما يُسمى «كتب الواجبات» أو كتب التعليقات أو الدساتير، ومن أهمها مخطوط ريجيوس الذي يعود إلى عام ١٣٩٠ . وتذكر كتب الواجبات أنه يتعيّن على البنّاء مساعدة زملائه وعدم ذمهم ، وعليه تعليم المبتدئين منهم ، كما أن عليه عدم إيواء الدخلاء . وتتحدث كتب الواجبات كذلك عن الأصول التاريخية أو الأسطورية لحرفة البناء التي يرجعون بها إلى مصر وإلى بناء هيكل سليمان . وثمة قصص أخرى وردت في هذه الكتب عن «الأربعة المتوجين» ، وهم أربعة بنّائين مسيحيين قتلهم الرومان وأصبحوا شهداء ، ومن ثم فقد كان هؤلاء هم قديسو البنّائين .

وقد ظلت نقابات البنّائين مزدهرة حتى عصر النهضة في الغرب في القرن السادس عشر، وهو أيضاً عصر الإصلاح الديني ، حين توقفت حركة بناء الكاتدرائيات وغيرها من المباني الدينية الكاثوليكية . ولكن ذلك تزامن مع ظهور الدولة القومية المطلقة التي قامت بتأسيس مشاريع عمرانية ضخمة تحت إشرافها كسلطة مركزية ، ومن ثم بدأت الدعائم التي تستند إليها نقابات البنّائين في الاهتزاز ، شأنها في هذا شأن كثير من الجماعات الحرفية والمؤسسات الإقطاعية الأخرى وبدأت في التحول إلى جماعات خيرية أو جماعات تضامن تحاول أن توفر لأعضائها بعض الطمأنينة النفسية وشيئاً من الأمن الاقتصادي . ومع تناقص العضوية ، بدأت النقابات تقبل في صفوفها أعضاء شرفيين ليحافظوا على الأعداد اللازمة ، ومن هنا بدأ التمييز بين البنّائين العاملين أو الأحرار ، أي الذين يعملون بالحرفة فعلاً ، والبنّائين المقبولين أو الرمزيين . وظهرت الماسونية الرمزية أو التأميلية أو النظرية أو الفلسفية التي حلت محل الماسونية الفعلية ، بحيث تحول البناء وأدواته من وظيفة إلى رمز . ولكن ، لم يكن البناء وأدواته المصدر الوحيد للرموز الماسونية ، فكما أسلفنا كان هناك

سليمان وهيكله ، وهو يعتبر البناء الأول ، وهيكله هو رمز الكمال الذي يطمح أن يصل إليه كل البتائين أو الماسون . ويبدو أن بعض رموز الملكية المقدسة في الدولة العبرانية وجدت طريقها إلى الشعائر والرموز الماسونية . وكان هناك رموز مسيحية كثيرة مأخوذة من تقاليد جماعات الفرسان التي انتشرت في أوروبا في العصور الوسطى ، والتي يعود أصل معظمها إلى حروب الفرنجة والاستعمار الاستيطاني للفرنجة في فلسطين ، مثل جماعة فرسان الهيكل (الداوية) وجماعة فرسان الإسعاف (الإسبتارية) وغيرهما . كما يحتل يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول مكاناً خاصاً ، وقد أسلفنا الإشارة إلى الأربعة المتوجين .

وقد يكون من المفيد (أو لعله من الطريف) أن نتوقف قليلاً عند أحد الأصول المفترضة للحركة الماسونية وفكرها حسب بعض مؤرخيها ، وهي بعض الجماعات الإسلامية (أو شبه الإسلامية) ، مثل : الدروز ، والطائفة الإسماعيلية ، وجماعة الحشاشين . ويرى هؤلاء المؤرخون أن الحركة الماسونية استمدت بعض أفكارها ورموزها وطريقة تنظيمها من هذه الجماعات . فشيخ الجبل ، رئيس جماعة الحشاشين ، الذي يمسك كل الخيوط بيديه لا يختلف كثيراً عن رئيس المحفل ، وطريقة العمل السرية وتجنيد الأعضاء الجدد وفكرة الدرجات التي تتبعها الحركة الماسونية لا تختلف كثيراً عن طريقة العمل والتجنيد في هذه الجماعات . بل وتذهب بعض المراجع إلى أن جماعة فرسان الهيكل التي اتخذت الحركة الماسونية كثيراً من رموزها رموزاً لها هي في الواقع الأصلي الحقيقي للحركة الماسونية ، وأن فرسان الهيكل هؤلاء الذين بدأوا نشاطهم في فلسطين إبان حروب الفرنجة ، ثم انتقل نشاطهم إلى أوروبا واستمر بعد سقوط كل جيوب الفرنجة في فلسطين ، وهؤلاء الفرسان هم في واقع الأمر مسلمون أو متأثرون بالفكر الديني الإسلامي ، وأنهم كانوا يحاولون من خلال تنظيمهم السري/ العلني أن يسيطروا على العالم المسيحي . ومن المعروف أن جماعة فرسان الهيكل كانت تكوّن شبكة ضخمة في معظم أرجاء أوروبا وأنه كان يتبعها مجموعة من المحاربين/ الرهبان (الذين تأثروا بفكرة الجهاد الإسلامية) ومجموعة من المؤسسات المالية الضخمة ذات نفوذ قوي . وقد تم ضرب فرسان الهيكل في فرنسا وفي كافة أنحاء أوروبا وقُدِّموا لمحاكم التفتيش . وكانت إحدى التهم الموجهة إليهم هو رفضهم لألوهية المسيح وتأثرهم العميق بالفكر الديني الإسلامي وتبشيرهم به ، وقد اعترف بعض الفرسان بالتهم الموجهة إليهم . ويبدو أن فرسان الهيكل قد تأثروا بالفكر الإسلامي أو المثل الإسلامية إبان وجودهم في الشرق الأوسط الإسلامي ، كما أنهم تعاونوا بالفعل مع جماعة الحشاشين ودبروا معهم بعض المؤامرات . مهما كان الأمر فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن بعض فرسان

الهيكل قدموا إلى إسكتلندا حيث أسسوا الحركة الماسونية للسيطرة على أوروبا بعد أن تم ضربهم . وقد استطردنا في الحديث عن فرسان الهيكل والإسلام لنبين مدى تشابك أصول الماسونية وتركيباتها .

وقد اختلطت فلسفة البنائين بالفلسفة الهرمسية السائدة في عصر النهضة في إنجلترا ، وهي فلسفة غنوصية ذات طابع أفلاطوني حديث ارتبطت بهرميس تريسميجيستوس ، وهو شخصية رمزية أساسية في الفكر الغنوصي حيث كان يُعدُّ نبيا قبل المسيحية ، وكان يُعدُّ رسول الآلهة للبشر ويحمل المعرفة الخفية الباطنية (الغنوص) . كما اختلطت فلسفة البنائين بالحركة الروزيكروشيانية (بالإنجليزية : روزيكروشيان Rosicrucian نسبة إلى روز rose بمعنى وردة وكروس cross أي صليب) التي ورد أول ذكر لها في القرن السابع عشر ، وهي جماعة غنوصية تدعي أنها تمتلك الحكمة الخفية عند القدماء . وقد أدى تداخل رموز البنائين وأسرارهم مع الفلسفة الهرمسية والروزيكروشيانية ، إلى أن سقطت تماماً القيمة الوظيفية لحرفة البناء ، وأدواتها (الفرجار والذراع والبوصلة والمثلث والمثزر والمنزلة) واكتسبت قيمة رمزية ، فتحول ميزان البنائين (على سبيل المثال) إلى رمز العدالة ، وتحول الفادن (وهو خيط رفيع في طرفه قطعة من الرصاص تمتحن به استقامة الجدار) إلى رمز استقامة الحياة وأفعال الإنسان .

وهكذا تشكلت الطبيعة الجيولوجية المركبة لرموز الماسونية التي ضمت رموزاً من الديانات المصرية القديمة ، كما ضمت كلمات عبرية بتأثير من القبالة التي دخل كثير من أفكارها على الماسونية . والواقع أن اختلاط فكر البنائين بالفلسفة الهرمسية والروزيكروشيانية يصلح مؤشراً على اتجاه الماسونية . فهذه الفلسفات ، برغم شكلها الصوفي ، كانت جزءاً من الثورة العلمانية (الشاملة) الكبرى التي تفجرت في الغرب في القرن السادس عشر ، والتي كانت تهدف إلى إزاحة الخالق من الكون أو وضعه في مكان هامشي ووضع الإنسان في المركز بدلاً منه ، على أن يقوم الإنسان بالتحكم الكامل في الكون عن طريق اكتشاف قوانين الطبيعة الهندسية والآلية . وهي ، بهذا ، غنوصية جديدة تهدف إلى التحكم في الكون ، لا من خلال المعرفة الخفية وإنما من خلال الصيغ العلمية . وعلى كل ، كانت المعرفة الخفية تأخذ ، في كثير من الأحيان ، شكل صيغ رقمية أقرب إلى المعادلات الجبرية .

وفي العصور الوسطى ، كان الوجدان الشعبي يرى أن مثال الغنوصية هو الدكتور فاوستوس الذي باع روحه للشيطان في سبيل المعرفة الكاملة . وفاوستوس هو بطل التفكير

العلمي ، تُنسب إليه النزعة الفاوستية التي تسم الفكر العلمي والثوري . وربما تكون مركزية رموز آلات البناء تعبيراً عن النسق الهندسي والآلي الكامن في الماسونية ، وعن رغبة التحكم في كل من الذات الإنسانية والكون من خلال صيغ رياضية (ولعل المقارنة هنا مع فلسفة إسبينوزا وطموحه نحو لغة رياضية هندسية دقيقة مقارنة لها دلالة عميقة) .

لا يمكن ، إذن ، فهم الماسونية إلا بوضعها في هذا السياق الفكري . وكما يعرف دارسو تاريخ أوروبا ، فإنه بعد ظهور فكر عصر النهضة وُلد فكر عصر العقل والاستنارة والإيمان بالقانون الطبيعي . والعلمانية (الشاملة) هي نزج القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) والإيمان بفعالية القانون الطبيعي في كافة مجالات الحياة الطبيعية والإنسانية وإنكار أي غيب ، وإلا لما أمكن التحكم في الكون (الإنسان والطبيعة) وتوظيفه واستخدامه وتحويله إلى مادة استعمالية . وقد انعكس هذا في فكرة الإنسان الطبيعي (العقلاني) أو الأممي ، وهو إنسان عام لا يتميز عن أي إنسان آخر ، صفاته الأساسية عامة أما صفاته الخاصة فلا أهمية لها ، وهو إنسان عقلاني إن أعمل عقله بما فيه الكفاية لتوصل إلى نفس الحقائق التي يتوصل إليها الآخرون - بغض النظر عن الزمان والمكان . ومن ثم ، يمكن لهذا الإنسان أن يصل إلى فكرة الخالق بعقله بدون حاجة إلى وحي إلهي أو معجزات ، أي دون الحاجة إلى دين مرسل ، أي أن الإنسان الطبيعي العقلاني العالمي (الأممي) يمكنه أن يتوصل بعقله إلى الإيمان بدين طبيعي عقلاني عالمي .

ويمكن القول إن الدين الطبيعي ، أو «الربوبية» كما كانت تُدعى ، هو تعبير عن معدل منخفض من العلمنة أو تعبير عن علمانية جنينية ، فهي تستجيب لحاجة أولئك الذين فقدوا إيمانهم التقليدي بالدين ولكنهم لا يزالون غير قادرين على تقبل عالم اختفى منه الخالق تماماً ، أي أنهم بشر جردوا العالم من الدين والقداسة واليقين المعرفي والأخلاقي ولكنهم احتفظوا بفكرة الخالق في صيغة باهتة لا شخصية ، حتى لا يصبح العالم فراغاً كاملاً .

والفكر الربوبي لا يطالب من يؤمن به أن يتنكر لدينه ، إذ أن المطلوب هو أن يعيد المؤمن تأسيس عقيدته ، لا على الوحي وإنما على قيم عقلية مجردة منفصلة تماماً عن أي غيب ، أي منفصلة عن الأنساق الدينية المألوفة للتفكير . فالربوبية ، في واقع الأمر ، هي فلسفة علمانية تستخدم خطاباً دينياً ، أو ديباجات دينية ، للدفاع عن العقل المادي المحض ، وعن الرؤية التجريبية المادية . ومن ثم ، فهي وسيلة من وسائل علمنة العقل الإنساني .

في هذا الإطار الفكري والفلسفي والديني ، وُلدت الماسونية . وقد تم تأسيس أربعة محافل متفرقة في إنجلترا في القرن السابع عشر ، جمعها كلها محفل واحد مركزي تأسس عام ١٧١٧ مع بدايات عصر العقل وحركة الاستنارة . ويعد هذا التاريخ هو تاريخ بدء الحركة الماسونية ، وقد سُمح لليهود الالتحاق بها عام ١٧٣٢ . ودخلت الحركة الماسونية فرنسا عام ١٧٢٥ ، وإيطاليا عام ١٧٣٣ ، وألمانيا عام ١٧٣٣ .

وإن أردنا تلخيص فكر أولى الماسونيات التي نقابلها ، ولنسمها «الماسونية العقلانية» أو «الماسونية الربوبية» ، لقلنا إنها تنادي بتوحيد كل البشر من خلال العقل ، كما تنادي بإسقاط الدين مع الاحتفاظ بالخالق خشية الفوضى الفلسفية الشاملة . ولذا ، فقد جاء في تعريف الماسوني أنه « ذكر بالغ يلتزم بالنسق الديني الذي يوافق عليه جميع البشر » . وهذا هو الإيمان بالخالق أو الكائن الأسمى (مهندس الكون الأعظم) ، أو الإيمان بالجوهر العقلي للدين والذي يمكن للعقل أن يصل إليه . وبوسع العضو أن يحتفظ لنفسه بأي آراء دينية خاصة أخرى ، على أن يعلن عن تسامحه لكل الأديان وعن إيمانه بأبوة الرب وأخوة البشر وخلود الروح . وقد جاء في الدستور الماسوني لعام ١٧٣٣ الصادر في إنجلترا أن الماسوني « لا يمكن أن يكون كافراً غيبياً أو يكون فاسقاً غير متدين » وعليه أن يحترم السلطات المدنية ولا يشترك في الحركات السياسية . ومن أهداف الماسونية الأساسية هو ما يُسمّى «اليقظة الأخلاقية عن طريق العلم» وهي عبارة قد تبدو بريئة ولكنها تعبير عن منظومة عقلانية مادية لاتزال متلبسة ديماغات أخلاقية وروحية . وتدعو الماسونية إلى مجموعة من الصفات العامة التي لا تتغير كثيراً من هذه البنية الفكرية التحتية ، فهي تدعو إلى وحدة البشر على أساس الإخاء والمحبة والمساواة ، والعون المشترك وخدمة الغير وحسن معاملتهم ، وحب الجماعة وتبادل المصالح والتحلي بالفضائل المدنية ، أى الفضائل التي يتسم بها المواطن الذي ينتمي إلى الدولة القومية (في مقابل الفضائل الدينية لدى الإنسان المتدين الذي ينتمي إلى الكنيسة ويؤمن بعقيدة مُنزلة) . كما تقُدس الماسونية الملكية الخاصة . وليس للماسونية هدف نهائي محدد ، وإن كان ثمة هدف فهو عام غير محدد ، وهو أن يكون العالم في النهاية في اتحاد أخوي وإلهي (ولعلنا نلاحظ هنا النموذج الحلولي الواحدي الكامن) .

ويمكننا أن نقول إن الماسونية الربوبية هي ماسونية الفكر المركتالي والدولة المطلقة ، وماسونية الطبقات الأرستقراطية التي احتضنت الطبقات الوسطى الصاعدة باعتبارها قوة

تستخدمها وتوظفها لصالح الدولة القومية المطلقة دون أن تسلمها صولجان الحكم والقيادة. وقد اكتشف الإنسان الغربي ، منذ عصر نهضته ، بعد ظهور ماكيافيلي وهوبز وفكرة القانون الطبيعي وضعف الإطار المسيحي التقليدي وانكماش سلطة الكنيسة الدنيوية ، أن المطلق الوحيد هو الدولة وأن مصلحتها العليا هي المطلق الأخلاقي الأسمى . ومثل هذه الفلسفة تضع الخالق والغيب في موضع هامشي ، بل والأهم من هذا أنها تُعلمين الإنسان وتجعله يستبطن هذه القيمة المطلقة حتى يخضع لإرادة الدولة بدلاً من إرادة الخالق . لكن كل هذا يتم داخل إطار عقلاني هادئ يشجع على تطويع الإنسان وتطبيعته . والدولة المطلقة هي إطار يضم كافة الطبقات تحت قيادة هذه أو تلك الملكية المطلقة ، أو أي ملكية أخرى في مواجهة الكنيسة التي كانت لا تزال تحاول الحفاظ على سلطانها الدنيوي . ومن ثم ، نجد أن أعضاء الأرسطراطية انضموا إلى الحركات الماسونية ، فقد انضم إليها ملكا بروسيا فريدريك الثاني وفريدريك الثالث ، وملوك شبه جزيرة إسكندنافيا ، وملك النمسا جوزيف الثاني ، ونابليون وأفراد عائلته ، وأعضاء الطبقة الوسطى الذين يطمحون إلى شيء من الحراك الاجتماعي . ويمكن تفسير انضمام أعضاء الأسرة المالكة الإنجليزية وأعضاء الأرسطراطية إلى الجماعات الماسونية من نفس المنظور . وكان كثير ممن يُطلق عليهم «مثقفو الطبقة الوسطى الصاعدة» من الماسونيين . كما يمكن أن نذكر من أعضائها فولتير ومونتسكيو والأنسيكلوبيديين (الموسوعيين) ، وفخته وجوته وهردر ولسنج وموتسارت ، وأعضاء الجمعية الملكية في إنجلترا ، وجورج واشنطن ، وماتزيني وغاربيالدي .

وفي عشية الثورة الفرنسية ، كان يوجد في فرنسا نحو خمسمائة محفل ماسوني . كما يقال إن أكثر من نصف أعضاء الجمعية العمومية في فرنسا ، عشية الثورة ، كانوا من الماسونيين . ولكن يجب ملاحظة أن معظم الماسونيين في فرنسا في تلك المرحلة لم يكونوا من غلاة الثوريين (الجمهوريين) بل كانوا من دعاة الإصلاح بلا ثورة . ولذلك ، فقد هاجر كثير منهم من فرنسا بعد تصاعد حمى الثورة ، أو سقطت رؤوس بعضهم ضحايا المد الثوري (ويمكن أن نخص بالذكر مارا ودانتون ميرابو ولافاييت باعتبارهم من قادة الثورة الفرنسية من الماسونيين) .

ويمكن القول إن الماسونيين كانوا من أعضاء طبقات أو فئات هامشية تود أن تحقق شيئاً من الحراك والمركزية ، أو كانوا أعضاء هامشين أو فئات هامشية في طبقات مركزية

ويودون أن يحققوا قدرًا من الحراك من خلال الانضمام إلى تجمع أكبر ، أو كانوا من أعضاء الأرستقراطية الذين أرادوا أن يستخدموا القوة الماسونية وأن يوظفوها لصالحهم الشخصي أو لصالح الدولة المطلقة . وربما يعود شيوع الماسونية في القرن الثامن عشر إلى سببين أساسيين : أولهما ، شيوع الفلسفات العقلانية المعادية للكنيسة والطبقات الإقطاعية . ولكن هذه الفلسفات لم تكن بعد ثورية أو إلحادية ، فقد كانت تعبر عن مصالح الطبقة الوسطى الصاعدة وعن رؤيتها التجارية المادية العلمانية الشاملة للكون ، بدون أن تعلن صراحة عن ماديتها أو علمانيتها إذ أنها كانت أضعف من أن تفعل ذلك . أما السبب الثاني ، فهو عدم تجانس رموز الحركة الماسونية ، الأمر الذي لعب دوراً حيوياً في زيادة مقدرتها التعبوية على مستوى كل الطبقات . وقد كانت الماسونية ديموقراطية تقوم بتجنيد أعضائها من كافة الطبقات ، ولكنها كانت في ذات الوقت أرستقراطية يترأسها الملك وأعضاء النخبة ، وتأخذ شكلاً هرمياً جامداً . وكانت ليبرالية تدعو إلى الأخوة والمساواة ، ولكنها كانت في ذات الوقت محافظة تدعو إلى عدم التعرض للسلطات الحكومية أو الخوض في الأمور السياسية . وكانت الماسونية في تلك المرحلة حركة إيمانية ربوبية ، ولكنها كانت تحوي داخلها كل معالم التفكير الإلحادي الذي يسقط الإله تماماً . وكانت عقلانية ذات رموز صوفية ، وتضم أفكاراً عالمية ومحلية . وربما جعلتها هذه الصيغة الإسفنجية تحقق هذا النجاح الباهر وتجعلها واحدة من أهم مؤسسات العلمنة في العالم ، فهي تستخدم ديباجات دينية ضبابية لتحقيق أهداف علمانية .

ولكن الماسونية هي بنت محيطها الحضاري التاريخي والجغرافي (فلا يوجد كما أسلفنا نسق عالمي واحد ينطبق على الماسونيين في كل زمان ومكان) ، فقد كانت ألمانية في ألمانيا وإنجليزية في إنجلترا وفرنسية في فرنسا . ولذا ، فقد تغيرت هي ذاتها مع تغير أوروبا . كما نجد أن تصاعد قوى الطبقة الوسطى ومعدلات العلمانية والإلحاد قد انعكس على الفكر الماسوني وتنظيماته ، فاكتسب كثير من المحافل الماسونية مضموناً ثورياً ، خصوصاً في البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، وأصبحت هي الأداة الكبرى في الحرب ضد الكنيسة ، وفي المطالبة بفصل الدين عن الدولة . هذا على عكس المحافل الماسونية في البلاد البروتستانتية حيث ظلت معتدلة تدور داخل إطار ربوبي .

وفي هذا الإطار الجديد ، ظهرت الماسونية الثانية التي تتخذ موقفاً إلحادياً أكثر صراحة ، وبدلاً من العقلانية الربوبية شبه المادية التي تستخدم ديباجات أخلاقية وروحانية تُسقط

الماسونية تدريجياً كل هذه الديباجات وتدور تماماً في إطار العقلانية المادية الكاملة ، فقرر محفل الشرق الأعظم في فرنسا عام ١٨٧٧ استبعاد أي بقايا إيمانية من الفكر الماسوني . وظهرت محافل ذات طابع ثوري مثل النورانيين (إليوميناتي) في بافانيا ، وقبلها المارتينيست في فرنسا ، وكانت المحافل الماسونية في روسيا القيصرية (الأرثوذكسية) خلايا ثورية ، وكان معظم أعضاء ثورة الديسمبريين من الماسونيين .

ويُلاحظ أن الماسونية الثانية ، وهي ثورية إلحادية ، تنتشر في البلاد الكاثوليكية والأرثوذكسية ، أي البلاد التي توجد فيها كنيسة قوية تقف ضد الفلسفات العقلانية البورجوازية والثورية العمالية . كما يلاحظ أن المحافل الماسونية في هذه البلاد ، كما هو الحال في أمريكا اللاتينية ، تتسم بثورتها وعدائها للكنيسة والكهنوت ، كما تتسم بارتباطها الواضح بالفلسفة الوضعية التي تجعل العلم هو الأساس الوحيد للقيمة والأخلاق ، فالتقدم الأخلاقي يتم تحقيقه من خلال التقدم العلمي ، والمنفعة الإنسانية ككل هي نهضة علمية (ولهذا لوحظ أن عدداً كبيراً من دعاة الفكر الوضعي في فرنسا وروسيا والعالم الثالث أعضاء في المحافل الماسونية) . كما أن الكنيسة ، بدورها ، تناصب الحركة الماسونية العداء . وبمرور الزمن ، أصبحت المحافل الماسونية تضم ، من ناحية الأساس ، عناصر البورجوازية والطبقة الوسطى ، ولم يعد ينضم إليها أي مفكرين ، كما اختفى منها كذلك أعضاء الأرستقراطية . وبرغم كل هذا ، فإن عضوية المحافل الماسونية ظلت ، من ناحية الأساس ، مقصورة على العناصر البورجوازية المعتدلة التي ترفض الدخول في أي مغامرات سياسية ، والتي تود أن تعيش في عالم علماني عقلاني ولكنها لا تريد مواجهة النتائج الفلسفية الناجمة عن ذلك ، وربما يفسر هذا سر تصدي البلاشفة للجماعات الماسونية وحظرهم إياها ، وتصدي هتلر وموسوليني أيضاً لهم وتجريم الجمعيات الماسونية . فالبلاشفة والفاشيون والنازيون هم راديكاليون ، وإذا كان البلاشفة راديكاليون عقلانيون ماديون فالفاشيون والنازيون راديكاليين لا عقلانيين ماديين ، ويطمحون إلى التحكم الكامل في الدولة وجماعتها ، ولذا فالاعتدال أو التراخي الماسوني يشكل تحدياً لسلطتهم . كما أن الجيب الماسوني يتمتع بقدر من الاستقلال بل والسرية ، فهو يمثل جماعة مصالح لها شعائرها وطقوسها ، والدول العلمانية الشمولية المطلقة لا تتحمل وجود مثل هذه الجيوب داخلها .

وقد انتشرت الماسونية في البلاد البروتستانتية لأن البروتستانتية هي شكل من أشكال علمنة المسيحية الكاثوليكية ، كما أن معدلات العلمانية مرتفعة فيها . فقد انتشرت بسرعة

في الجزر البريطانية بسبب عدم وجود كنيسة مسيطرة على جوانب الحياة ، وبسبب انخراط الطبقة الحاكمة في صفوف الماسونية . وقد انتشرت الماسونية مع اتساع الإمبراطورية الإنجليزية ، فانتقلت إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا ومصر وفلسطين والهند وغيرها من المستعمرات أو المحميات . وقد احتفظت الحركة الماسونية بطابع هادئ مهادن داخل التشكيل البروتستانتي .

ولكن الماسونية البريطانية لم تكن هي الماسونية الوحيدة التي انتشرت في المستعمرات ، إذ أن الصراع الإمبريالي على العالم انعكس من خلال صراع بين الحركات والمحافل الماسونية ، فكان كل محفل ماسوني يخدم مصلحة بلد ويمثله - تماماً كما حدث صراع بين المبشرين البروتستانت والمبشرين الكاثوليك الذين كانوا يمثلون مصالح بلادهم . ويبدو أن بعض الشخصيات المهمة في العالم العربي أرادت أن تستفيد من هذا الصراع ، خصوصاً وأن أعضاء هذه المحافل كانوا من الأجانب ذوي الحقوق والامتيازات الخاصة المقصورة عليهم . فكان الدعاة المحليون ينخرطون في هذه المحافل بغية توظيفها في خدمة أهدافهم ، وحتى يتمتعوا بالمزايا الممنوحة لهم . وكان من بين هؤلاء الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والأمير عبد القادر الجزائري . ولعل هذه الشخصيات الدينية والوطنية حذت حذو ماتزيني وغاريالدي وغيرهما ممن حاولوا الاستفادة من أي أطر تنظيمية قائمة . ولنا أن نلاحظ أن الأفغاني قد اكتشف حقيقة الماسونية في وقت مبكر ، وتوصل إلى الأسس العلمانية التي يقوم عليها خطابها الديني ، ومن ثم ناهض هذه الأفكار في كتابه الرد على الدهريين . أما عبد القادر الجزائري فلا توجد تفاصيل حول علاقته بالماسونية ، وإن كان قد حاول إيجاد أطر تنظيمية وتأسيسية لحركته مع الاستفادة من أسلوب التنظيمات الماسونية . وقد انضم إلى الحركة الماسونية أحد أبناء محمد علي باشا وكانت له مطالب في عرش مصر ، وقد كان أستاذاً أعظم لمحفل الشرق الأعظم المصري ، وتبعه في ذلك عدد من أعضاء الأسرة المالكة . كما انضم إلى الحركة الماسونية شخصيات أخرى ، مثل سعد زغلول ويوسف وهبي . ولكن ارتباط أمثالها بالحركة الماسونية كان واهياً للغاية ولا يعدو قبولهم ذكر أسمائهم ضمن قائمة الأعضاء أو حضور اجتماع يُعقد على شرفهم دون أي إدراك من جانبهم للتضمينات الفلسفية وراء الفكر الماسوني . كما أن الحركة الماسونية ظلت في مصر وغيرها ضعيفة تضم في صفوفها الأجانب أساساً .

ويمكننا الآن طرح قضيتين هامتين هما : النفوذ السياسي والاقتصادي للماسونية ، وسرية تنظيماتها ، وهما عنصران مترابطان تمام الترابط . فالحركات الماسونية تتركز في بلاد

غربية متقدمة تحكمها حكومات مركزية قوية ، وتخضع فيها كافة الحركات السياسية والاجتماعية للمراقبة ، وإلا لما أمكنها تسيير دفة الحكم . ولا يمكن في الحقيقة تصور وجود حركات ضخمة لها قوة فعالة لا تخضع للإطار العام الذي تفرضه مثل هذه الدول المركزية الرشيدة ، فعملية التنبؤ والتخطيط تتطلب مثل هذا التحكم ومثل هذه المعرفة . والمحافل الماسونية تخضع لهذا القانون العام ، ولم يكن من الممكن أن تشكل استثناء له . لكن هذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، من تسلل بعض العناصر المغامرة إلى بعض المحافل لتوظيفها بشكل أو بآخر ، من خلال شبكة اتصالاتها ، في الاحتيال أو الأعمال الإجرامية . وهذا هو بالضبط ما تفعله ، على سبيل المثال ، عصابات المافيا (الجريمة المنظمة) مع الجهاز التنفيذي في الولايات المتحدة ، إذ تستأجر كبار المحامين وتشتري القضاة وتجند ضباط الشرطة ، أي تقوم بتوظيف الجهاز الذي أسس لمكافحةها والقضاء عليها لتنفيذ أهدافها الإجرامية ، وكل هذا لا يعني وجود مؤامرة مافياوية للاستيلاء على العالم . وكذلك الجماعات الماسونية ، فهي إذا ما تحولت إلى قوة ضغط (لوبي) ، فإنها لا تختلف كثيراً عن مراكز الضغط الأخرى داخل النظام السياسي والاقتصادي . وإن أخذ نشاطها شكلاً تآمرياً أو إجرامياً في بلد ما ، فلا يصح تعميم مثل هذه الوقائع وافتراس وجود مثل هذا النشاط على مستوى العالم بأسره .

وقد وُصفت الولايات المتحدة بأنها ديموقراطية جماعات الضغط . ولابد وأن المحافل الماسونية تشكل إحدى هذه الجماعات التي تعمل داخل النظام ، فهذا هو المتوقع منها ، وهذا هو « قانون اللعبة » . ولا يمكن في هذا السياق أن نتحدث عن مؤامرة خفية أو علنية . ومن الناحية النظرية ، يمكن أن نقول أن المحافل الماسونية بوسعها أن تمارس ضغوطاً ضخمة في العالم الثالث نظراً لضعف جهاز الدولة المركزي . ولكن ، بحسب ما هو متوفر لدينا من معلومات ، لا توجد حكومة في العالم الثالث سقطت في يد اللوبي الماسوني . ولكن لوحظ إنه قد بدأ يظهر تحالف بين بعض المحافل الماسونية وعصابات المافيا في إيطاليا في العالم الأول ، وقد بدأوا في السيطرة على بعض المؤسسات المالية الشرعية ليمارسوا نشاطهم غير الشرعي وراء ستار . كما أن الماسونية تلعب دوراً تآمرياً ملحوظاً في بلد مثل تركيا حيث يمارس يهود الدونمه نشاطهم من خلال المحافل الماسونية . ويُقال إن الماسونية لها أيضاً دور متميز في بلد مثل المملكة الأردنية الهاشمية . ولا توجد سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم ، بل ويختلف تركيب الحركة من بلد إلى آخر ، فلا توجد على سبيل المثال سلطة ماسونية مركزية في أمريكا أو كندا إذ أن التنظيم الفيدرالي في هاتين الدولتين انعكس

على شكل تركيب الحركة الماسونية ، على عكس الوضع في إنجلترا وفرنسا ، حيث يوجد حكومة مركزية قوية ومن ثم محفل مركزي قوي .

أما بالنسبة إلى سرية المحافل ، فهذا أمر مركب أيضاً ، فالجمعيات الماسونية سرية بمعنى أن طقوسها وبعض الإشارات الأخرى فيها سرية ، ومن ينضم إلى الحركة يقسم على ألا يكشفها (وهذا ميراث العصور الوسطى) . ولا تسمح الحركة الماسونية لأي شخص بالانضمام إليها ، وإنما يتم تجنيد الأعضاء عن طريق توصية أحد الأعضاء العاملين . والحركة الماسونية لا تختلف في هذا عن كثير من النوادي الخاصة وغيرها من المؤسسات . كما أن المحافل تخفي بعض الطقوس عن الأعضاء الجدد إلى حين التأكد من ولائهم . وما عدا ذلك ، فلا يوجد أي شيء سري ، إذ يتم تأسيس المحافل الماسونية بموافقة السلطات ، وكل اجتماعاتها معروفة سلفاً لدى هذه السلطات ، كما أن أعضاء المحافل معروفون في أغلب الأحيان لدى الحكومة . والمحافل الماسونية لا تخفي وجودها أو أهدافها أو عملها . وحينما صدر قانون حَظَر منع الجمعيات السرية في إنجلترا عام ١٧٩٨ ، استثنيت المحافل الماسونية من ذلك . ويمكن لأي باحث أن يطالع أرشيف محفل الشرق الأعظم في فرنسا . كما أن كثيراً من المحافل الماسونية تقدم مضابط اجتماعاتها إلى السلطات الحكومية .

ولكن ، مع هذا ، تضطر بعض المحافل الماسونية إلى إخفاء أسماء أعضائها خوفاً من السلطات الحكومية في البلاد التي تلعب فيها هذه المحافل دوراً انقلابياً . ولابد أن نضيف هنا أن المحافل الماسونية تم إغلاقها في مصر لأنها رفضت أن تخضع لتفتيش وزارة الشؤون الاجتماعية نظراً لأن هذا يتعارض مع ما تتطلبه الحركة من سرية وكتمان بخصوص الطقوس . ورغم أن هذا هو رأينا ، إلا أننا نود أن نبه إلى أن نموذجنا التفسيري يترك قدراً لا يُستهان به من الحوادث والوقائع دون تفسيره . فعلى سبيل المثال ، من المعروف أن عدداً كبيراً من رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة (بها في ذلك جورج واشنطن) كانوا من الماسونيين . كما لوحظ أن عدداً كبيراً من قادة الثورة الفرنسية — كما أسلفنا — كانوا أيضاً من الماسونيين . والواقع أن هناك شخصيات هامة في كثير من الحكومات الغربية (في المعسكر الرأسمالي) أو الحكومات الشرقية (في المعسكر الاشتراكي) كانوا أعضاء في المحافل الماسونية ، ولكن عضويتها تظل طي الكتمان . كما أن بعض الجرائم تشير إلى وجود شبكة ماسونية ، ولكن الوصول إلى الحقائق مازال في حاجة إلى مزيد من البحث الذكي

والموضوعي (ويمكن أن نقول نفس الشيء عن نوادي الروتاري والليونز ، التي يُثار حولها لغط شديد في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي ، دون أن يكون هناك شواهد متعينة ، تشكل أساساً لمثل هذا اللغط) .

والآن يبلغ عدد الماسونيين في العالم نحو ٥٩ مليوناً ، منهم أربعة ملايين في الولايات المتحدة ومليون في إنجلترا . فإن أضفنا عدد الماسونيين في كل من كندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا ، فإننا نجد أن الماسونية منتشرة أساساً في البلاد البروتستانتية ، خصوصاً الاستيطانية ، وهذا أمر متوقع إذ أنها نشأت أساساً في المحيط البروتستانتية ، شأنها شأن كثير من الحركات السياسية والفكرية المعاصرة - كالصهيونية والعلمانية والنازية . وقد لوحظ مؤخراً تناقص عدد الماسونيين في العالم بشكل ملحوظ (ولذا ، فقد تكون الأرقام التي أتينا بها غير دقيقة . وقد ورد في أحد المصادر أن العدد الآن لا يتجاوز الثلاثة ملايين) .

والماسونية هي جزء من التشكيل الحضاري الغربي بعد الثورة العلمانية (الشاملة) الكبرى وتعبير عن تلك الثورة . و«الماسونية الأولى» (ماسونية عصر الملكيات المطلقة) هي تعبير عن المراحل الأولى للعلمانية ، تماماً كما أن الماسونية الثانية تعبير عن تصاعد معدلات العلمنة . ويمكننا أن نقول كذلك إنه ، مع تحقيق أهداف الثورة العلمانية في معظم بلاد العالم الغربي ، فقدت الماسونية دورها الثوري بوصفها إحدى مؤسسات العلمنة واكتسبت مضموناً آخر . وبالفعل ، بدأت المحافل الماسونية تتحول إلى ما يشبه النوادي التي تضم أعضاء لهم مصلحة مشتركة وتشكل إطاراً يتبادل داخله الأعضاء الخدمات - شأنها في هذا شأن كثير من مؤسسات المجتمعات الغربية التي يقال لها متقدمة . ويمكن أن نطلق على هذا الضرب من الماسونية اسم «الماسونية الثالثة» .

أما في الولايات المتحدة ، فقد بدأت تظهر محافل ذات طابع اجتماعي ترفيهي ، وهي محافل ليس لها وضع مقنن داخل التنظيمات الماسونية ، وإن كان كثير من أعضائها من الماسونيين . ومن هذه المحافل «الطريقة العربية القديمة لنبلأ الحرم الصوفي» ، ويقال لهم «الحرميون» ، و«الطريقة الصوفية لأنبياء المملكة المسحورة المثلثين» . وبدأت بعض هذه المحافل تسمح للنساء بالانضمام إليها ، كما أُسست محافل للفتيان والفتيات . وتمتع المحافل الماسونية البريطانية أعضاءها من الالتحاق بأي من محافل الترفيه هذه ، إذ أنها تُعدُّ نوعاً من الابتذال . وهذا النوع من الماسونية السوقية أو الماسونية المتأمركة أو ماسونية عصر الاستهلاك وما بعد الحداثة هو «الماسونية الرابعة» .

## الماسونية واليهود واليهودية

قد يكون من الهام جداً ، حين نحاول تحديد علاقة الماسونية باليهود واليهودية ، أن نؤكد مرة أخرى الفرق بين أعضاء الجماعات اليهودية الخاضعين لحركيات الحضارات المختلفة التي ينتمون إليها واليهودية كنسق ديني أو حتى كتشكيل جيولوجي . وقد يقول قائل إن الماسونية حركة لا علاقة لها بالدين بالمعنى الدقيق للكلمة باعتبارها حركة أخلاقية أخوية وحسب . فالدين هو علاقة بالخالق تأخذ شكل الإيمان به وعبادته ، أما الأخلاق فهي نسق من الأفكار ينظم علاقة الإنسان بالإنسان لا بالخالق ، ومن ثم فالماسونية تتعامل مع رقعة من الوجود الإنساني تختلف عن تلك التي يتعامل معها الدين . ولكن كلاً من التعريفين السابقين للأخلاق والدين قاصر ، فالدين هو إيمان الإنسان بالإله ، (المطلق - الغيب) كعقيدة تترجم نفسها إلى سلوك وإلى علاقة بين الإنسان والإنسان . ولكن الدين ليس فقط عبادات وإنما معاملات أيضاً . والأخلاق بدورها ليست مجرد مجموعة من القواعد الخارجية التي تحدد سلوك الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، وإنما هي مجموعة من القواعد تستند إلى معنى داخلي يعتمد على رؤية للكون - ومن هنا التداخل بين الدين والأخلاق ، وكذلك التداخل بين الماسونية والدين .

وقد بينا أن الماسونية بدأت كدعوة ربوبية ، فهي نسق فكري ديني متكامل يستند إلى العقل ( المادى ) وحسب لا إلى العقل والغيب معا ، يحدد علاقة الإنسان بالخالق وبالطبيعة وبطرق المعرفة . وتطرح الماسونية أمام تابعيها طرق الخلاص وتتكفل بتعليم مريديها السلوك الأسمى ، وتزودهم بأساس فلسفي للأخلاق التي يؤمنون بها ، فضلاً عن أن اجتماعاتها تبدأ وتنتهي بصلاة . ولذا ، كان لابد وأن تصطدم الماسونية بالأديان كلها : المسيحية الكاثوليكية ، والبروتستانتية ، واليهودية الأرثوذكسية وريثة اليهودية الحاخامية . وكانت المسيحية الكاثوليكية هي أكثر الديانات في عداؤها للماسونية ، فقد أعلن البابا كلمنت الثاني عشر عام ١٧٣٨ أن الماسونية كنيسة (أي ديانة) وثنية غير مقدسة (وهو في تصورنا وصف دقيق لها) ، ولم يسمح للكاثوليك بالانضمام إليها . أما الكنائس البروتستانتية ، فبعضها فقط ناصبتها العدا . وأما اليهودية الأرثوذكسية ، فهي تحرم على اليهود الانضمام إلى المحافل الماسونية ، وتعتبر من ينضم إليها خارجاً على الدين ، هذا على خلاف الصيغ اليهودية المخففة مثل اليهودية الإصلاحية كما سنين فيما بعد .

ويمكننا الآن أن نتناول علاقة الماسونية بأعضاء الجماعات اليهودية . وسوف تكون الصورة هنا أكثر تركيباً وتنوعاً واختلاطاً . وكما أشرنا ، تشكل الماسونية دعوة ربوبية رخوة تعددية تستند إلى العقل ، وهي تطرح على المؤمن بها عقيدة متكاملة ، ولكنها لا تتطلب إليه أن يتخلى عن عقيدته الأصلية ، ولذا كان من الممكن لكافة أعضاء الديانات الانضمام إليها دون أن يضطروا إلى نبذ دينهم (وقد كان هناك محفل ديني في الصين يستخدم الإنجيل والقرآن وكتابات كونفوشيوس ككتب مقدسة) .

وقد ظهرت الماسونية في وقت كانت فيه اليهودية الحاخامية قد بدأت تدخل مرحلة أزمتهما التي أودت بها في نهاية الأمر . فالفكر القبالي كان قد حل محل التلمود وقوض اليهودية من الداخل . كما أن شبتاي تسفي من جهة ، وإسبينوزا من جهة أخرى ، كانا قد شنّا هجومهما الشرس في منتصف القرن السابع عشر على اليهودية من ناحيتي اليمين واليسار . وكان يهود البلاط والعنصر السفاردي قد حلّا محل القيادة الحاخامية التقليدية . كل هذا ، جعل الثورة العلمانية الشاملة تترك أعمق الأثر على بعض أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا قد بدأوا يضيّقون ذراعاً باليهودية وأخذوا يبحثون عن مخرج لهم منها ، فظهرت بينهم حركة التنوير واليهودية الإصلاحية . وقد حل بعضهم أزمته بأن تنصر . ولكن الانتقال إلى المعسكر المسيحي أمر صعب من الناحية المضمونية والتعبيرية ، فعقيدة مثل التثليث ، أو رمز مثل الصليب ، أمور من الصعب على كثير من اليهود تقبلها .

وقد حلت الماسونية مشكلة هؤلاء اليهود الذين اغتربوا عن يهوديتهم ، والذين ازدادت معدلات العلمنة بينهم ، والذين كانوا يريدون الاندماج في مجتمع الأغيار ولكنهم لا يريدون التنصر . وكان ظهور الحركة الماسونية علامة على أن مجتمع الأغيار قد بدأ يفتح ذراعيه لهم ، وأصبحت المحافل الماسونية هي الأرضية الروحية والفعلية التي يمكن لأعضاء الجماعات اليهودية اللقاء فيها مع قطاعات مجتمع الأغلبية . وقد كانت هذه الأرضية تتسم بقسط معقول من الحيادية ، فمع أنه كان هناك رموز ذات أصل مسيحي ، ومع أن الفكر الماسوني احتفظ ببعض الأفكار المسيحية ، فقد كان هناك رموز ذات مضمون عقلائي عام (رموز البناء) وهي رموز عامة ومحايده . وماذا يمكن أن يكون أكثر حياداً من أدوات الهندسة التي يستخدمها البناء ؟ بل كان هناك رموز يهودية أيضاً : سليمان والهيكول وكلمات عبرية . كما كان هناك رموز كونية عامة يمكن أن يشارك أعضاء الجماعات اليهودية فيها . ولكن الأهم من كل هذا أنه لم يكن مطلوباً منهم اعتناق دين جديد أو رفض دينهم القديم ، فكل ما كان مطلوباً منهم هو إزاحته جانباً أو تهميشه وإعادة تأسيس عقيدتهم

على العقل لا الغيب . ولذا ، انخرط اليهود بأعداد متزايدة في صفوف الماسونية . ويُلاحظ أن أول الماسونيين بين اليهود كانوا من السفارد ، إذ أن معدلات العلمنة كانت مرتفعة بين العنصر السفاردي . ثم بدأت تنخرط في سلك المحافل الماسونية عناصر يهودية أخرى تزايدت بينها معدلات العلمنة ، مثل : أتباع اليهودية الإصلاحية ، وبقايا العناصر الشبتانية ، واليهود الذي تأثروا بالقبّالاه . ولذا ، يجب أن نؤكد أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين انضموا إلى المحافل بأعداد متزايدة فعلوا ذلك لا بسبب يهوديتهم أو عقيدتهم ، وإنما بالرغم منها . بل إن انخراطهم في المحافل الماسونية تمثل بالنسبة لبعض اليهود صياغة دينية مخففة تساعدهم على التخلص من هويتهم الدينية بدون إحساس بالخرج من عدم وجود إيمان ديني على الإطلاق .

وقد برز اليهود في الحركة الماسونية ، خصوصاً في إنجلترا حيث التحقوا بالحركة في عام ١٧٣٢ ، وأسس أول محفل ماسوني يهودي عام ١٧٩٣ . أما في فرنسا ، فقد أصبح السياسي الفرنسي اليهودي أدولف كريميه (١٨٦٩) البناء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الإسكتلندية . وكان هناك كثير من مؤسسي المحافل الماسونية التي كان ينضم إليها أعضاء الطبقة الوسطى المعادون للكنيسة الكاثوليكية . ولكن لم تكن الصورة واحدة في كل البلاد ، ففي شبه جزيرة إسكندنافيا ، وكذلك في ألمانيا ، ظلت مشاركة اليهود في الحركة الماسونية مسألة خلافية ، وقد سُمح (حتى عام ١٨٧٠) لعدد صغير جداً من اليهود بالانخراط في سلك الحركة . وكانت بعض المحافل تقبل اليهود ولكن داخل إطار ألماني مسيحي . فمحفل الإخوة الآسيويين ، الذي أُسس في فيينا خلال عامي ١٧٨٠ و ١٧٨١ ، كان ضمن طقوسه أكل لحم الخنزير باللبن . وكما هو معروف ، فإن لحم الخنزير محرّم على اليهود ، وكذلك فإن خلط اللحم باللبن محرّم عليهم أيضاً .

وقد تزايد طلب اليهود على الانخراط في المحافل الماسونية في ألمانيا ، وقامت دعوة بين الماسونيين الألمان تطالب بقبول اليهود كأعضاء في الحركة . لكن هذه الدعوة لم تنل تأييد زعامة الحركة ، وقد تحول بعض يهود ألمانيا إلى الماسونية في أثناء رحلاتهم في إنجلترا وهولندا ، وخصوصاً في فرنسا ما بعد الثورة . وقد تأسست في ألمانيا نفسها محافل فرنسية ومحافل بمبادرة فرنسية ، وأسس يهود فرانكفورت عام ١٨٠٨ محفل «الفجر الوليد» بتصريح من منظمة الشرق الأعظم . ولا شك في أن مثل هذه المحافل الفرنسية اليهودية زادت من عداء الماسونيين الألمان لليهود . ومن ثم ، ظهرت دساتير ماسونية تستبعد اليهود بشكل خاص . ولكن بعض المثقفين الماسونيين الألمان قاموا في ثلاثينيات القرن بالاحتجاج

على استبعاد اليهود ، وانضم إليهم في احتجاجهم هذا ماسونيو إنجلترا وهولندا والولايات المتحدة . وقد اكتسحت ثورة ١٨٤٨ بعض الفقرات التي تستبعد اليهود ، واعترفت المحافل المسيحية في فرانكفورت بالمحافل اليهودية . وقد كانت محافل بروسيا هي الاستثناء الوحيد حيث استمرت في استبعاد اليهود ، ولكنها بدأت مع السبعينيات تسمح بدخول اليهود زواراً ثم أعضاء .

ولكن الموجة العنصرية التي صاحبت الهجمة الإمبريالية على الشرق ، اكتسحت أوروبا بأسرها وأخذت أشكالاً عديدة من بينها معاداة اليهود . وتقوم بعض أدبيات معاداة اليهود بالربط بين اليهود والماسونيين وتذهب إلى أن ثمة تعاوناً سرّياً بين الفريقين للسيطرة على العالم ، ولتخريب المجتمعات - وقد ترددت هذه الفكرة إبان محاكمة دريفوس . كما أن نفس هذا الموضوع يتردد أيضاً في البروتوكولات . وقد كان الربط بين اليهود والماسونيين هو أحد أحجار الزاوية في الدعاية النازية المضادة لليهود ، حيث كان النازيون يشيرون دائماً إلى كرمييه باعتباره البناء الأعظم ومؤسس جمعية الأليانس اليهودية .

وغني عن القول أن مثل هذه العلاقة التآمرية المباشرة لا وجود لها . وبحسب ما توفر لدينا من وثائق ، ليست هناك هيئة مركزية عالمية تضم كل المحافل الماسونية . كما أن هناك يهوداً معادين للماسونية وماسونيين معادين لليهود واليهودية . ولكن ثمة علاقة بنوية وفعلية بين الماسونيين وأعضاء الجماعات اليهودية تفسر انخراط اليهود بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية يمكن إيجازها في النقاط الثلاث التالية :

١ - من المعروف أن الماسونيين معادون للكنيسة والكهنوت . وهذه نقطة لقاء بينهم وبين أعضاء الجماعات اليهودية الذين فقدوا إيمانهم الديني - وهم الآن أغلبية يهود العالم . ويتصور هؤلاء أن المجتمعات العلمانية تضمن لهم أمنهم وحقوقهم ، ومن ثم ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية . وهذه الظاهرة يمكن رصدها في أمريكا اللاتينية بينما يصعب رصدها في فرنسا وإنجلترا ، على سبيل المثال ، لأن الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية لاتزال هي الإطار المرجعي للمجتمع ، ومن ثم تأخذ محاولات العلمنة شكلاً تنظيمياً محدداً مثل المحافل الماسونية . أما في إنجلترا وفرنسا ، فإن العلمانية أصبحت الدين الرسمي للدولة ، ومن ثم تفقد المحافل الماسونية قيمتها الوظيفية والرمزية .

٢ - تضم المحافل الماسونية أعداداً كبيرة من العناصر المالية والتجارية والمهنية . كما أن التركيب الوظيفي والمهني لليهود العالم يجعل أغليبيتهم الساحقة من هذه القطاعات ، إذ لا يوجد بينهم عمال أو فلاحون ، ومن ثم تزداد نسبتهم في المحافل الماسونية .

٣ - الحركة الماسونية حركة أممية تتجاوز الولاءات القومية (كما أن إنسان عصر الاستنارة هو إنسان أممي). وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية أعضاء في جماعات وظيفية وسيطة تقلل من الولاء للوطن وتجعل الولاء للجماعة الوظيفية أو المصالح المالية . كما أن فترة ظهور الماسونية هي أيضاً الفترة التي بدأ فيها يهود اليديشية في الهجرة بأعداد هائلة إلى كل أطراف العالم . والعناصر المهاجرة ليس لها ولاء قومي قوي . لكل هذا ، نجحت المحافل الماسونية في اجتذاب أعضاء الجماعات اليهودية فتزايدت معدلات العلمنة وضعف الانتماء القومي . ولعل في تركيز اليهود في القطاعات المالية والتجارية ما يفسر وجودهم بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية . وحينما يربط المعادون لليهود بينهم وبين الحركة الماسونية ، فإنهم محقون في ذلك تماماً إذ أن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية في المحافل الماسونية عادةً ما يكون أعلى بمراحل من نسبتهم إلى عدد السكان . ولكن يبدأ الخلل حينما يطرحون تصور وجود مؤامرة خفية ، والأمر كله لا يعدو أن يكون ظاهرة اجتماعية . فالخلل ليس في الوصف وإنما في التفسير .

وقد اشترك بعض أعضاء الجماعات اليهودية في تأسيس الحركة الماسونية في الولايات المتحدة ، وثمة دلائل تشير إلى أنه كان يوجد أربعة يهود بين مؤسسي أول محفل ماسوني عام ١٧٣٤ في الولايات المتحدة (مدينة سافانا في ولاية جورجيا) . ولقد اتبعت الطقوس الماسونية في وضع حجر الأساس للمعبد اليهودي في تشارلستون (ساوث كارولينا) عام ١٧٩٣ . واستمر الوجود البارز لليهود في المحافل الماسونية في القرن التاسع عشر . وقد كتب محفل نيويورك إلى محفل برلين الأساسي يشكو من رفض المحافل الألمانية أن تقبل أعضاء المحافل الأمريكية في صفوفها لأنهم يهود . والماسونية الأمريكية ، مثل معظم المؤسسات الأمريكية ، تتسم بأنها لم تعرف التمييز ضد اليهود أو غيرهم من الأقليات والطوائف البيضاء ، وقد تبنت جماعة البناي بريت اليهودية عند تأسيسها بعض الطقوس الماسونية السرية ، ولكنها أسقطتها بعد فترة .

أما في فلسطين ، فقد تأسست محافل ماسونية بين العرب المسلمين والمسيحيين والأجانب (المسيحيين واليهود) . وبعد إنشاء الدولة الصهيونية ، بلغ عدد المحافل الماسونية أربعة وستين محفلاً سنة ١٩٧٠ ، تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة عضو من اليهود والمسيحيين والمسلمين .

وقد قامت بعض المحافل الماسونية العربية بنقد الصهيونية واشتركت بعض القيادات الماسونية في المقاومة ضد الاستيطان الصهيوني . وعكس ذلك صحيح أيضا ، إذ رفضت بعض المحافل الماسونية التصدي للصهيونية باعتبار أن هذا نوعاً من العمل السياسي .

### البهائية والجماعات اليهودية

«البهائية» عقيدة جديدة دعا إليها ميرزا حسين علي نوري (١٨١٧ - ١٨٩٢) الذي كان يلقب «بهاء الله» . وتعود جذور هذه العقيدة إلى البابية التي أسست عام ١٨٤٤ على يد ميرزا علي محمد الشيرازي الذي نشأ في وسط باطني متصوف ، والذي أعلن أنه الباب (الطريق إلى الله) . وذهبت البابية إلى أن ثمة نبيا أو رسولا جديداً سيرسله الله . وكانت البهائية في بداية أمرها شكلاً متطرفاً من أشكال العقيدة في الفرقة الإسماعيلية ، ومن عقيدة الإمام الخفي الذي سيظهر ليجدد العقيدة ويقود المؤمنين .

وقد انتشرت البابية على الرغم من تنفيذ حكم الإعدام في الباب عام ١٨٥٠ وقتل ما يزيد على عشرين ألفاً من أتباعه . وقد قام البايون بمحاولة اغتيال الشاه ، فنفى قائدهم آنذاك ميرزا حسين علي إلى بغداد عام ١٨٥٣ . وفي عام ١٨٦٣ ، أعلن ميرزا أنه رسول الله الذي تنبأ به الباب ، وقد أعلن عن رسالته بخطابات أرسلها إلى حكام كل من : إيران وتركيا وروسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا . واعترف به أغلبية البابين الذي أصبحوا يُسمون «البهائيين» . ونُفي ميرزا حسين إلى عكا في فلسطين ، وتوفي عام ١٨٩٢ حيث تحول قبره في بهجي (أي الحديقة بالفارسية) إلى أقدس مزارات البهائيين . وقد خلفه في قيادة الجماعة البهائية أكبر أبنائه عباس أفندي الذي سُمي عبد البهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١) والذي أصبح كذلك المفسر المعتمد لتعاليمه . وقد سافر عبد البهاء إلى عدة بلاد لينشر تعاليم الدين الجديد من عام ١٩١٠ إلى عام ١٩١٣ . وعيّن أكبر أحفاده شوجي أفندي رباني (١٨٩٦ - ١٩٥٧) خليفة له ومفسراً لتعاليمه . وقد انتشرت تعاليم البهائية في أنحاء العالم .

وكتب البهائية المقدسة هي كتابات بهاء الله التي كتبت بالعربية والفارسية ، مضافاً إليها التفسيرات التي وضعها عبد البهاء وشوجي أفندي . وتتضمن هذه الكتابات التي تزيد على المائة منها الكتاب الأقدس الذي يحوي كل مفاهيم مذهبه وكل تشريعاته ، وكتاب الإيقان ، وهو دراسة عن طبيعة الخالق والدين ومجموعة الألواح المباركة ، وكتاب الإشراقات والبشارات ، وكتاب الأساس الأعظم ، وله قصيدة أسماها ورقائية .

وجوهر البهائية هو الإيمان بالحلول الكامل أو بوحدة الوجود، أي توحد الخالق بمخلوقاته . فالخالق هو جوهر واحد ليس له أسماء ولا صفات يمكن أن تصفه ولا أفعال ، ولا يمكن الوصول إليه (ولا توجد أدلة على وجوده أو غيابه مثل الإله الخفي في الفكر القبالي أو الباطني الغنوصي) ، وهو إلى حد ما يشبه القوانين الطبيعية غير الشخصية التي لا علاقة لها بالأنساق الأخلاقية (كما هو الحال مع مفهوم الإله عند إسبينوزا) . والخالق واحد ليس له شريك في القوة والقدرة وهو الذي خلق الكون . ولكن هذا الكون ليس شيئاً آخر سوى تجلٍ للخالق ، بل إنه هو ذاته الخالق (أي أن الخالق ومخلوقاته مادة واحدة لا تنفصل ولا تتجزأ) . وقد لخصت هذه الحلولية في القول البهائي الذي ينسب إلى الخالق : " الحق يا مخلوقاتي أنكم أنا " . والبهائية ، في هذا ، لا تختلف كثيراً عن غلاة المتصوفة والباطنية ، ولا عن الفكر القبالي أو الغنوصي ، حيث لا توجد أي مسافة أو ثغرة بين الخالق والمخلوق ، بل ثمة اتحاد وحلول وواحدية (على خلاف التصور الإسلامي للخالق الذي يرى أن الله قريب من عباده ولكنه ليس كمثل شيء ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ولكنه لا يجري في عروقنا ولا تدركه الأبصار) .

ولكن ، إذا كان الخالق هو مخلوقاته ، فالحقيقة الدينية تصبح حقيقة نسبية وليست مطلقة لأن كل الأشياء يحل فيها الخالق وتلفحها لفحة من القداسة . والحقيقة تعبر عن نفسها من خلال الزمان وداخله ، ولا يختلف تجلي الرب في أي شيء عن تجليه في أي شيء آخر . فتصبح كل الأمور مقدسة ، ومن ثم تصبح كل الأمور متساوية . وفي نهاية الأمر ، تصبح كل الأمور نسبية ، أي أن المطلق المتجاوز يختفي في لحظة التحام الخالق بالمخلوق . وقد شاء الخالق (وإن كان يصعب في هذا السياق أن نتحدث عن «مشيئة الخالق» فهو لا يتجاوز مخلوقاته) أن يتجلى من خلال رسله ، مثل : براهما ، وبوذا ، وزرادشت ، وكونفوشيوس ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، ومحمد (عليه الصلاة والسلام) . وتضم القائمة الباب ثم بهاء الله الذي تظهر من خلاله صفات الخالق بشكل أوضح وأجلى مما كانت عليه . بل إنه داخل الإطار الحلولي يكون بهاء الله هو ذاته الخالق ، ومن ثم وجه البهائيون سهام نقدهم إلى الفكرة الإسلامية الخاصة بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو خاتم المرسلين ، ففي رأيهم أن كل عصر يحتاج إلى تجلٍ إلهي . وثمة تشابه عميق هنا بين بنية البهائية وبنية اليهودية الحاخامية ، فكلتاهما تؤكد استمرارية الوحي الإلهي في التاريخ الإنساني أو استمرارية الحلول الإلهي (في الحاخامات حسب النسق اليهودي ، وفي بهاء الله

حسب النسق البهائي) . وهو تشابه سنلاحظه في جوانب أخرى من النسقين الدينيين . كما يُلاحظ أن هذا التشابه يزداد عمقاً بين البهائية والقبالة . ومن المنظور البهائي ، فإن جوهر كافة الأديان واحد . ومع هذا ، فإن كل دين له سماته الخاصة التي تجيب حاجة كل زمان ومكان وتتفق مع المستوى الحضاري السائد . وحيث أن الخالق يكشف عن نفسه بشكل تدريجي ، فإن كل دين سيحل محله دين آخر ، بما في ذلك العقيدة البهائية ذاتها - ولكن ذلك لن يتم قبل ألف عام .

ولكن مهمة الأديان في هذا السياق هي خلق وحدة شاملة بين البشر تزداد اتساعاً مع مرور الزمن . فإبراهيم قام بتوحيد قبيلة ، وموسى قام بتوحيد شعب ، ومحمد (عليه الصلاة والسلام) قام بتوحيد أمة ، أما المسيح فكان هدفه تطهير الأرواح وتحقيق قداسة الفرد ، وقد تحققت بالفعل مهمة كل تجلٍ إلهي . ولكن هذا لا يكفي إذ أن الحضارة - في هذا التصور - وصلت إلى مرحلة أصبحت معها وحدة الإنسان (وبالتالي وحدة الأديان) مسألة ضرورية . وهذه هي مهمة بهاء الله الذي ستتحقق على يديه وحدة الأديان وقداسة البشرية بأجمعها . وخالق العالم قد خلق الإنسان من خلال حبه له ، والإنسان هو أنبل المخلوقات جميعاً خلقه الإله ليعرفه ويعبده . وهذا أمر يصعب فهمه في إطار حلولي ، فالخالق هو المخلوق . ومن ثم ، إذا عبد المخلوق الخالق فإنه يعبد نفسه أو يعبد قوة خفية لا يمكن الوصول إليها تشبه قوانين الطبيعة . وثمة تذبذب حاد ومتطرف هنا ، بين الذاتية المتطرفة والموضوعية المتطرفة ، يسم كافة الأنساق الحلولية . ففي اليهودية نجد أن الشعب يتوحد تماماً بالخالق ، ومن ثم تصبح إرادة الشعب من إرادة الخالق . بل إن الخالق يحتاج إلى الشعب لتكامله . ولكن هذا الشعب لا إرادة له لأنه أداة في يد الخالق .

ويميّز البهائيون بين خمسة أنواع من الأرواح : الحيوانية ، والنباتية ، والبشري ، وهذه كلها أرواح زائلة فانية (ولذا يذهب بعض دارسي البهائية إلى القول بأنها لا تؤمن بخلود الروح) ، وروح الإيمان (وهي وحدها التي تمنح الروح البشرية الخلود) ، ثم أخيراً الروح القدس (وهي منطقة الحلول الكامل ووحدة الوجود حيث يصبح الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً) . والواقع أن هذه الهرمية لا تختلف كثيراً عن هرمية المنظومة الغنوصية والقبالية . ويبدو أن الروح البشرية ، كخالق ، ليس لها حدود واضحة ، إذ أن هذه الروح بعد أن تنفصل عن الجسد قد تحمل في شخص آخر وتأخذ شكلاً آخر من الوجود . وفكرة تناسخ

الأرواح سمة أساسية في مختلف الأنساق الحلولية التي تنكر حدود الفرد وتنكر المسؤولية الخلقية ، تماماً كما هو الحال في القبالة .

ولا يؤمن البهائيون بالجنة والنار ، فهذا مجرد رموز لعلاقة الروح بالخالق ليس إلا ، فالقرب من الخالق هو الجنة والبعد عنه هو النار التي تؤدي إلى الفناء الكامل للروح . لكن الإيمان وتصورهم هو الذي يضمن (كما أسلفنا) الخلود ، والخلود عبارة عن استمرار الرحلة نحو جوهر الخالق الخفي للاتحاد به . وفي داخل هذا النسق الحلولي ، لا يمكن أن يكون هناك مجال للشواب أو العقاب أو البعث . ولا يوجد في البهائية كهنة أو قرايين ، فهم يشكلون ما يمكن تسميته بالثيوقراطية الديموقراطية والتي تتمثل في هيئتين حاكمتين : إحداهما إدارية والأخرى تعليمية . أما الهيئة الإدارية ، فهي تتكون من المجالس الروحية القومية ، وأما المجالس المحلية فهي تتكون من تسعة أشخاص (والتي يمكن تأسيسها أينما وجد تسعة بهائيين) ، وبيت العدل العمومي (وهو الهيئة العليا ولها سلطة تغيير كافة القوانين حينما تدعو إلى ذلك التغيرات الدنيوية ، فيمكنها أن تلغي القوانين التي وردت في الكتاب الأقدس وأن تصوغ قوانين جديدة لم ترد فيه) ، ثم هناك الهيئة التعليمية (وهي الأخرى مكونة من بناء هرمي من المجالس والقادة) . ويتم انتخاب أعضاء المجالس الإدارية عن طريق الأعضاء . ويُعتبر الانتخاب شكلاً من أشكال العبادة — وما الناخب سوى أداة الخالق ، ومن ثم لا يكون العضو المنتخب مسئولاً أمام ناخبيه .

ويصلي البهائيون يومياً (قبلتهم القدس) . وبرغم أنه يفترض عدم وجود أماكن عامة للعبادة ، فإن الكتاب الأقدس قد أوصى بتشييد معابد تُسمى «مشرق الأذكار» ، وهو بناء من تسعة جوانب عليه قبة مكونة من تسعة أقسام وهي مفتوحة لكل أعضاء الديانات الأخرى . ويصوم البهائيون شهراً بهائياً (١٩ يوماً) كصيام المسلمين (ينتهي بعيد النيروز) ولا يشربون المشروبات الروحية ويحتمعون في بداية كل شهر بهائي . ولهم قوانين خاصة بالميراث ، فالمعلم يرث جزءاً من ثروة البهائي ويتساوى الرجل بالمرأة في كل شيء . وقد جعلوا الحج إلى مقام بهاء الله في عكا . والتقويم البهائي يتكون من تسعة عشر شهراً ، والشهر يتكون من تسعة عشر يوماً ، ويبدأ العام البهائي في ٢١ مارس أول أيام الربيع . ومن ناحية أخرى ، فإن التقويم البهائي يشبه التقويم الفارسي .

ويحتل الرقم ١٩ مكانة خاصة في الفكر البهائي . والبهائية ، في هذا ، تشبه تراث القبالة والجهاتريا الذي ركز على القيمة العددية للحروف ، فتحسب القيمة الرقمية للكلمات وتستخلص منها النتائج التي يريد أن يصل إليها المفسر (وهذه سمة متكررة أيضاً

في الأنساق الحلولية التي تدرك الكون من خلال نسق هندسي حتمي) . فيقول البهائيون أن عدد حروف البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ١٩ ، وأن كلمة (واحد) قيمتها العددية ١٩ (و = ٦ - الألف = ١ - ح = ٨ - د = ٤) . ويستخرج البهائيون من الرقم ١٩ براهين ودلائل على أشياء عديدة .

ويصعب حساب عدد البهائيين في العالم ، ويقال إنه يتراوح بين مليون ونصف ومليونين ، وكان يوجد عام ١٩٨٥ نحو ١٤٣ مجلساً روحياً قومياً يتبعها ٨٨٦ ، ٢٧ مجلساً محلياً في ٣٤٠ بلدة مختلفة . وترجمت تعاليم البهائية إلى أكثر من ٧٠٠ لغة . وفي هذه الأيام ، تحقق العقيدة البهائية انتشاراً سريعاً في أفريقيا والهند وفيتنام حيث يصل عدد البهائيين إلى مئات الألوف . ويتحول عدد كبير من الهند وسكان أمريكا اللاتينية الأصليين إلى البهائية . ففي بيرو وبوليفيا ، على سبيل المثال ، يوجد قرى بأكملها بهائية ، وقد اعتنق ملك سموا Samoa العقيدة البهائية . ويمكن تفسير انتشار البهائية باعتباره تعبيراً عن ضعف كثير من الأطر الدينية التقليدية ، وتعبيراً عن تزايد معدلات العلمانية ، إذ تؤدي هذه العملية إلى أن قطاعات كبيرة من المجتمع تفقد الإيمان بعقيدتها التقليدية ، ولكنها لا يمكنها التخلي عن الدين تماماً أو عن فكرة الخالق . والواقع أن رغبتهم العامة للإيمان تشبهها هذه العقيدة التي تستخدم الخطاب الديني دون إشارة إلى عقيدة محددة أو طقوس محددة ، وهو عادة خطاب حلولي واحدي يصفي كل الشائيات وأشكال التنوع إذ يتم اختزال الواقع إلى مستوى واحد ويتم رده إلى مبدأ واحد ، وهو الإله الحال الذي لا يختلف عن قوانين المادة الكامنة فيها ، ومن ثم فهو خطاب ديني اسماً ولكنه مادي فعلاً إذ أن الخالق يصبح مخلوقاته أو يصبح قوة عامة مجردة غير شخصية مثل قوانين الطبيعة وفكرة التقدم . والبهائية ، في هذا ، تشبه الربوبية والماسونية واليهودية التجديدية . وعند نشوب الثورة الإسلامية في إيران ، كان يوجد ٣٠٠ ألف بهائي في إيران يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والمال والأمن ، واستفاد نظام الشاه من وجودهم . وقد تعاون البهائيون مع الإسرائيليين ، وكانوا يديرون مؤسسة الأمن في إيران ، كما كانت لهم نشاطات أخرى . وقد حُرِّم نشاطهم بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران .

أما بخصوص علاقة البهائية بالعقيدة والجماعات اليهودية ، فقد بينا أن ثمة تماثلاً بنويًا بين البهائية واليهودية في جانبها الحلولي . ولعل هذا هو السر في أن البهائية تجتذب كثيراً من اليهود . ففي إيران ، مهد العقيدة ، تبنى كثير من أعضاء الجماعة اليهودية البهائية ، وهو ما جعل الحاخامات يحاربون ضدها بشراسة . ولا يزال هذا هو موقف

اليهودية الأرثوذكسية منها . ويُلاحظ أن يهود الولايات المتحدة في الوقت الحالي يتجهون أيضاً إلى الماسونية والعبادات الجديدة والعقائد الغنوصية بأعداد كبيرة ، وإن كانت الإحصائيات الدقيقة غير متوفرة . ومع هذا ، فإن من المعروف أن البهائية أصبح لها أتباع كثيرون في منطقة مثل كاليفورنيا المعروفة بوجود كثافة يهودية عالية فيها .

والأمر ليس مؤامرة بهائية ضد اليهودية ، وإنما هو تشابك بين نسقين عقيدتين يستجيبان لنفس الاحتياجات ويحيبان على نفس الأسئلة بنفس الطريقة السهلة . ومما يسهل عملية اعتناق اليهود للبهائية أن ثمة تعاطفاً يسري في العقيدة البهائية نحو اليهودية والدولة الصهيونية . فقد كان عباس أفندي يرى أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد ، ولكنه كان يرى أيضاً أن النجاح الذي بدأ اليهود في فلسطين يحققونه في عهده دليل على عظمة بهاء الله وعلى عظمة دورته الإلهية ، وفي كتاب المفاوضات ورد ما يلي : «أنت تلاحظ وترى أن طوائف اليهود يأتون إلى الأرض المقدسة من أطراف العالم ، ويمتلكون القرى والأراضي ويسكنون ويزدادون يوماً بعد يوم حتى تصبح جميع أراضي فلسطين سكناً لهؤلاء » . وهو بذلك قد أخذ العقيدة الألفية البروتستانتية وأعطاهما بعداً بهائياً .

وفي ٣٠ يونيو ١٩٤٨ ، كتب أشوجي أفندي رباني ، زعيم الحركة البهائية آنئذ ، إلى بن جوريون يعبر له عن أطيب تمنياته من أجل رفاهية الدولة الجديدة مشيراً إلى أهمية تجمع اليهود في « مهد عقيدتهم » . ومن المعروف أن مركز البهائية هو «بيت العدل» الذي أعد له بناية ضخمة في حيفا على جبل الكرمل في أبريل ١٩٨٣ ، والذي يديره تسعة بهائيين يتم انتخابهم . وقامت الجماعة البهائية بإعداد قصر ضخم في حيفا حتى يكون مزاراً لكل بهائي العالم .

ولكن هذا لا يعني بتاتاً أن كل البهائيين يؤيدون الصهيونية وإسرائيل . فالجماعات البهائية تدين بنفس العقيدة ، ولكن اتجاهاتها السياسية تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية والتاريخية . وما ينطبق على البهائية ينطبق على كافة الأديان ، فيوجد مثلاً مسيحيون صهيونيون في أوروبا يؤيدون إسرائيل ، وترى بعض الفرق المسيحية الصهيونية في أمريكا أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى صهيون . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن البهائيين العرب يؤكدون أنهم يدينون بالولاء إلى وطنهم العربي وحسب ، وقد يكون في هذا بعض الصدق ، أو لعله من باب التقية (أي الإيثار بشيء وإظهار شيء آخر) . والأمر مازال مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين .